

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدرس الواحد والعشرون

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين :-

باب

قول الله تعالى: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) (٥٩) الآية.

في (الصحيح) عن ابن المسيب عن أبيه قال: (لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل، فقال له: (يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله) فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ، فأعادا فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال النبي ﷺ: (لأستغفرن لك ما لم أنه عنك) فأنزل الله - عز وجل - (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ) (٦٠) الآية. وأنزل الله في أبي طالب: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) (٦١)

بسم الله الرحمن الرحيم

[الشرح]:

عقد المصنف - رحمه الله تعالى - هذا الباب باب قول الله تعالى (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

◆ ما مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

مناسبتة الرد على القبوريين وأمثالهم الذين يعتقدون في الأنبياء، والصالحين النفع والضرر فإذا كان أصلح الصالحين الأولياء وسيد الأنبياء محمد ﷺ يقال له إنك لا تهدي من أحببت فكيف بمن دونه أليس كذلك، إذا كان محمد رسول الله يقول له ربه (إنك لا تهدي من أحببت) فكيف بمن دونه ممن يدعوهم هؤلاء القبوريون ومشركوا الزمان ففيها رد عليهم

هذه الآية قول الله تعالى "إنك" المخاطب فيها النبي ﷺ،

"لا تهدي من أحببت" سبحان الله!! ألم يقل الله - عز وجل - { وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم } كيف نجمع

بين الآيتين (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) نفي للهداية عن النبي ﷺ (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) إثبات

للهداية للنبي ﷺ كيف نجمع بينهما؟

إذا الجمع بين النصين بأن نبين ما المراد بالهداية المثبتة، وما المراد بالهداية المنفية فقول الله - عز وجل - إنك لا تهدي من أحببت هذه هداية التوفيق والإلهام فهي خالصة لله - عز وجل - لأنها متعلقة بمشيئته وحكمته وربوبيته :

(١) فالنوع الأول: من الهداية هداية التوفيق والإلهام وهذه خاصة بالله تعالى لا يشاركه أحد سواه كما يقول الله - عز وجل - (يضل من يشاء ويهدي من يشاء) إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء .

(٢) النوع الثاني: هي هداية الدلالة؛ والإرشاد، والتعليم، والبيان وهذه مثبتة للنبي ﷺ ولسائر الأنبياء، والعلماء، والدعاة والمربين، وكل من كان على صواب ودعى إليه يدل عليها قول الله تعالى { وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم } صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض .

ويدل عليها قول الله تعالى: { وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى } أي نوع هذا الهداية؟ دلالة وإرشاد لأنها لو كانت توفيق وإلهام لاستجابوا وأمنوا لكنهم استحبوا العمى على الهدى فدل على أن الهداية التي هدوا إليها هي هداية البيان، والدلالة، والإرشاد

وهذا -يا أخوة - أمر مشاهد تجد أن الأب - مثلا - يعظ ابنه وينصحه ويملك آمن إن وعد الله حق أليست هذه هداية؟ هداية دلالة وبيان فيأبى ويقول إن هذا إلا أساطير الأولين إذا هداية الدلالة، والبيان، والإرشاد، والتعليم تحصل لأهلها من الأنبياء والعلماء والدعاة والمربين، والناصحين، والمحسبين وأما دلالة التوفيق والإلهام فهي مما يختص الله تعالى به

قوله إنك لا تهدي من أحببت أي يا محمد من أحببت من؟ من أحببت هدايته

ومن كان المراد بذلك؟ أبو طالب لكنها تشمل من هو أعم من هذا

ولكن الله يهدي من يشاء يعني من أراد الله به خيرا قال الله - عز وجل - : { فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنها يصعد في السماء } أمور إلهية سماوية بيد الله - عز وجل - الشرح والضيق من الله - سبحانه وتعالى - ،

تتمة الآية وهو "أعلم بالمهتدين" يعني هو سبحانه أعلم بمن يستحق الهداية بمن لا يستحق

◆ فهذا هو مضمون هذا الباب وصلته بكتاب التوحيد قد بينها ففي هذه الآية :-

- الرد على من يعتقد في الأولياء والصالحين نفعا أو ضرا وتصرفا

- الفائدة الثانية : أن هداية التوفيق والإلهام بيد الله
- أيضا دلت على إثبات صفة العلم لله هذه الفائدة الثالثة ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين فقله أعلم دليل على صفة العلم لله - عز وجل -
- أيضا دلت على إثبات صفة المشيئة لقله من يشاء فالله له المشيئة المطلقة ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .
- أيضا دلت على إثبات الحكمة لله تعالى لقله { وهو أعلم بالمهتدين }
- واحفظوا جيدا - أيها الإخوان - أن مشيئة الله دوما مقترنة بحكمته مشيئة الله ليست مشيئة محضة هكذا ، لا ، مشيئة مقترنة بحكمة فالله تعالى يشاء لحكمة أفعاله معللة سبحانه وبحمده مبنية على الحكمة والتعليل
- بخلاف ما ذهب إليه الأشاعرة أن الله يشاء بمحض المشيئة ولو لم يكن هناك حكمة هذا باطل وقد ألف ابن القيم - رحمه الله - كتابا ماتعا في باب القدر اسمه شفاء العليل في القضاء، والقدر، والحكمة، والتعليل من أحسن ما كتب في موضوع القدر

◆ أتبع ذلك بهذا الحديث

قال في الصحيح مراده في صحيح مراده في صحيح البخاري

عن ابن المسيب عن أبيه من ابن المسيب؟ هو سعيد - رحمه الله - الإمام الثبت الثقة المشهور الذي توفي على رأس المائة تقريبا بعد التسعين سعيد بن المسيب وأبوه المسيب بن حزم عن ابن المسيب ويقال المسيب عن أبيه قال وأبوه كان صحابيا وقد كانت وفاته زمن عثمان ومن الطريف أنه يعني أراد النبي ﷺ أن يغير اسم حزم إلى سهل فقال لا أغير اسما سمانيه أبي اسمه حزم لقبه المسيب قال سعيد فما زالت فينا حزيمة آل المسيب لم يقبل والده تغيير اسمه والأسماء مؤثرة - أيها الإخوان -

قال " لما حضرت أبا طالب الوفاة - أبو طالب هو عم النبي ﷺ وقد كان له عناية ورعاية للنبي ﷺ فأدخله في جواره وحماه من قريش لكنه كان مصرا على كفره -

قال جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل اثنان من صناديد قريش كانا يعودانه وهو يحتضر وجاء النبي ﷺ في تلك الحالة - ومعنى حضرته الوفاة يعني مقدماتها وعلاماتها معلومة الوفاة نسأل الله أن يحسن لنا ولكم الخاتمة لها مقدمات ولها علامات -

فقال: يا عم - هكذا لأنها كانت يا عمي فحذف حرف العلة منادى فبقي منه الكسرة - يا عمي

قل لا إله إلا الله كلمة لماذا قلنا كلمة؟ لأنها بدل من جملة لا إله إلا الله قل: لا إله إلا الله، كلمة

أحاج لك بها عند الله يعني ما معنى أحاج لك بها عند الله يعني أشفع لك عند الله بها أنك قلتها

فقال له أي هذين المشركين .

أترغب عن ملة عبد المطلب من عبد المطلب جد النبي ﷺ أبو أي طالب وكان من أعظم العرب ومقدم قريش وهو الذي أعاد حفر بئر زمزم وكان له ذكر وسيط فهما نخياه بنخوة الجاهلية قالوا أترغب عن ملة عبد المطلب وتعرفون يعني مقدار هذا الأمر ووقعه في نفس العربي العرب أمة تحتفي بأبائها وأجدادها ويعتزون بهم نخوة جاهلية يعني إذا كان في غير موضعها فأعاد عليه النبي ﷺ

قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله فأعادا يعني عيه قولهما أترغب عن ملة عبد المطلب وتأملوا هذا المحتضر الذي يلتفت يميني ويلتفت يسرى له من يدعو إلى الهدى وله من يدعو إلى الضلالة لكن لمن كانت الغلبة فكان آخر ما قال هو على ملة عبد المطلب لما عبر الراوي بقوله هو؟ استبشاعا للكلمة وهذا كثير نظائره في النصوص يعني المراد أن آخر ما قال أنا لكن الراوي استثقل أن يأتي بالتعبير الذي ينسب إلى النفس:

فكان آخر ما قال هو على ملة عبد المطلب وأبي أن يقول لا إله إلا الله فقال النبي ﷺ وهذا - إخواني - يدلکم علی أن العرب كانوا يعرفون دلالات الألفاظ ما هي المسألة مجرد كلمة تقال يعلم ماذا يعني أن يقول لا إله إلا الله يعني الكفر بالطواغيت باللات والعزى ومناة وهبل وغير ذلك فكان يدرك مدلول هذا وأنه يعني الدينونة لله وحده فقط يدركون ماذا يعني ذلك وهم في فراش الموت .

فأبى أن يقول فقال النبي ﷺ لأستغفرن لك ما لم أنه عنك حلف النبي ﷺ هذه لام القسم وبعدها نون التوكيد

الثقيلة ما لم أنه عنك أحترز ﷺ

فأنزل الله - عز وجل - { ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى } ما كان للنبي أي لا ينبغي له وهذا أبلغ من قوله لا تستغفروا للمشركين يعني أنه ما كان ولا ينبغي لهم وحاشاهم (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين أنهم أصحاب الجحيم)

{ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم } هذا التوحيد الخالص أيها الأخوة الذي يلغي جميع الروابط، والعلاقات، والشائج سوى رابطة الإيمان فإذا تعارضت هذه الروابط مع رابطة الإيمان بطلت، أما إذا بقيت فهي باقية

وأنزل الله في أبي طالب { إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين }

◆ فمناسبة هذه القصة للباب ظاهرة

- لأنها في الواقع سبب نزول وتفسير لها، وفيها أن النبي ﷺ على عظم قدره ومنزلته عند الله لم يملك لعمه الأقرب نفعا ولم يملك هدايته فكيف يطلب ذلك من غير من هو أدنى من النبي ﷺ

◆ وفي الحديث فوائد متعددة منها:

- مثلا جواز عيادة المريض الكافر إذا رجي إسلامه وقد كان النبي ﷺ يفعل ذلك حتى إنه عاد مرة غلام يهوديا وهو على فراش الموت فقال له أسلم فنظر الغلام إلى أبيه أبوه يهودي جلف لكنه في تلك الساعة رقت نفسه وقال أطع أبا القاسم واليهودي قل أن يلين قلبه قال أطع أبا القاسم فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله فخرج النبي ﷺ وهو يقول الحمد لله الذي أنقذه من الناري .

- وفي الحديث أو في هذه القصة بيان ضرر أصحاب السوء وقرناء السوء انظروا أيها الأخوة شؤم هذه العلاقة كيف أنهم في هذه اللحظات الأخيرة حالوا بينه وبين النجاة هكذا صديق السوء فليحذر الإنسان أن يتأثر برفقاء السوء على مختلف الدرجات ليس بالضرورة أن يكون قرين السوء يعني يحول بين الإنسان والإيمان لا أحيانا يكون سببا في أن يوقعه في المعصية في الفسق في غير ذلك من الكبائر، وكما قيل عن المرء فلا تسئل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي .

- في القصة أيضا ما يدل على معرفة العرب بمعنى لا إله إلا الله وأنها تقتضي الكفر بما يعبد من دون الله .

- وفي القصة أيضا ما يدل على أن الأعمال بالخواتيم لأنه لو قال لا إله إلا الله لحاج له بها عند الله - عز وجل -

- وفي القصة والحديث ما يدل على بطلان التعلق بالنبي ﷺ وغيره لجلب النفع أو دفع الضر وهذا واضح فالذين يغفلون في النبي ﷺ ويدعونهم من دون الله أين هم عن هذا الحديث حينما يقول قائل يا أكرم الخلق ما لي من ألود به سواك عند حلول الحادث العمم إن لم تكون يوم معادي أخذ بيدي عفوا وإلا فقل يا زلت القدم أين يذهبون أين هم عن مثل هذا الحديث وهذه الآية

- وفي الحديث أيضا ما يدل على كفر أبي طالب والرد على من زعم إسلامه وهذا أمر يسلكه بعض الضعفاء يحاولون بدافع عاطفي أن يثبتوا إسلام أبي طالب وإسلام والدي النبي ﷺ بلا دليل أو بأدلة موضوعة فهذا هو الواقع أن أبا طالب آخر ما قال هو على ملة عبد المطلب هذا الذي نعتقه فيه وفيه أيضا مضرّة تقليد الآباء والأجداد إذا كانوا على باطل

◆ لنستمع إلى المسائل..

[قراءة المتن]

- الأولى: تفسير قوله: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) (٦٢).

[الشرح]: نعم وأن المراد بهذه الهداية هداية التوفيق والإلهام

[قراءة المتن]

الثانية: تفسير قوله: (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ) (٦٣) الآية.

[الشرح]: نعم وهذا يدل على عدم جواز الاستغفار للمشركين مطلقا ومن تطبيقاتها أن النبي ﷺ استأذن ربه أن يزور قبر أمه بالأبواء وأن يستغفر لها فأذن له أن يزور قبر أمه ولم يأذن له أن يستغفر لها فأتى النبي ﷺ ومعه أربعمائة زائر من أصحابه فقام على قبرها وبكى وأبكى من حوله ولم يستغفر لها نعم

الثالثة: وهي المسألة الكبرى - تفسير قوله ﷺ: (قل: لا إله إلا الله) بخلاف ما عليه من يدعي العلم.

[الشرح]: نعم أن تفسير لا إله إلا الله الكفر بما يعبد من دون الله وعدم دعاء غير الله - عز وجل - هذا هو تفسيرها الذي عرفه أبو طالب والمشركون ويتجاهله مشركو الزمان.

– الرابعة: أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذ قال للرجل: (قل لا إله إلا الله). فقبح الله من أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام.

[الشرح]: يعني أعلم منه بأصل الإسلام من حيث المراد والدلالة فلا شك أن هذا يدل على سوء حاله أن يكون أبو جهل أعرف منه بحقيقة الإسلام ويقال إن أحد العرب سأل أحد الصحابة قال إلى ما تدعون؟ قال إلى لا إله إلا الله فقال لتقاتلنكم الروم والعجم

انظر كيف استنبط هذا المعنى قال إلى ما تدعون؟ قال إلى لا إله إلا الله فقال لتقاتلنكم الروم والعجم أدرك أن هذه الكلمة العظيمة الثقيلة لها تبعات ويترتب عليها مواقف ليست كلمة تقال باللسان لأن أصحاب الأهواء وأصحاب الشرك سوف يذبون عن هذه المصالح التي يحصلون عليها فيحملون السلاح في وجه أهل الإسلام

– الخامسة: جدّه ﷺ ومبالغته في إسلام عمه.

[الشرح]: وذلك لأن لعمه حق خاص لقرابته ولأنه كان يزوده ويحميه ولهذا لما سأله العباس هل نفعت عمك بشيء قال نعم وجدته في الدرك الأسفل من النار فأخرجته إلى ضحضاح من نار تحت قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه خفف عنه بسبب شفاعته النبي ﷺ وهذه من أخص أنواع الشفاعة

– السادسة: الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه.

[الشرح]: لأن ملة عبد المطلب هي الشرك

– السابعة: كونه ﷺ استغفر له فلم يغفر له، بل نهي عن ذلك.

[الشرح]: لأنه قال لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فنهى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى

– الثامنة: مضرة أصحاب السوء على الإنسان.

[الشرح]: وهذا واضح بين عافانا الله وإياكم

– التاسعة: مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر.

[الشرح]: كذلك على الإنسان أن يتخلص من هذا القيد فلا يكون متبعاً إلا بنور الحق لا تحمله على ذلك عاطفة أو عصبية أو نخوة جاهلية عليه أن ينزع بنفسه عن كل هذا ويتسامى ولا يقع أسيراً مرتيناً لمثل هذه الأشياء

- العاشرة: الشبهة للمبطلين في ذلك، لاستدلال أبي جهل بذلك.

[الشرح]: وهي قولها أترغب عن ملة عبد المطلب

- الحادية عشرة: الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم، لأنه لو قالها لنفعته.

[الشرح]: صحيح الأعمال بالخواتيم لو قالها أبو طالب لنفعته ولحاج النبي ﷺ له بها عند الله - عز وجل -، ولهذا ينبغي للإنسان دوماً أن يسأل الله حسن الخاتمة ففي حديث أبي مسعود المشهور:

"فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها"

فهذا يوجب للإنسان أن يكون بين الخوف والرجاء والألّا يركن إلى حاله وألّا يعجب بنفسه بل يسأل الله العصمة

- الثانية عشرة: التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين، لأن في القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها، مع مبالغته ﷺ وتكريره، فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم، اقتصروا عليها.

[الشرح]: ما هي تلكم الشبهة؟ الاعتزاز بالأباء والأجداد والملة السابقة فكل من احتج بمثل هذا ففيه شبهة من المشركين كأن يقول قائل والله أدركنا علماءؤنا ومشايخنا على هذه الطريقة أدركناهم على هذا الحال هذا لا يغني شيئاً بل يجب الرد عند التنازع عند الاشتباه إلى ما حكم الله تعالى به الدين وهو كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هذا وصلى الله على نبينا محمد، آله وصحبه أجمعين؛